أحاديث إصلاح القلوب

(١٤)

غيث القلوب

عَنْ أَبِى مُوسَى عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِى اللهُ بِهِ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ؛ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ؛ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِىَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِى دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِى اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ. وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ**». متَّفق عليه[(١)].

بيَّن النَّبِيُّ ﷺ أنَّ: «مثل ما بعثه الله به مِنَ الهدى والعلم، مثل الغيث الَّذِي تشربه الأرض، فتخرج فنون الثَّمرات، وتمسكه أرض لتنتفع به النَّاس، وأرض ثالثة؛ لا تنتفع بشربه، ولا تمسكه لغيرها.

فتبيَّن أنَّ القلوب تشرب ما ينزله الله مِنَ الإيمان والقرآن، وذلك شراب لها، كما أنَّ المطر شراب للأرض، والأرض تعطش وتروى، كذلك القلب

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

يعطش إلى ما ينزله الله ويروى به»[(١)].

وهو سبحانه الَّذِي يطعمه هذا الشَّراب، فيحيا القلب به. «وحصول العلم في القلب كحصول الطَّعام في الجسم، فالجسم يُحِسُّ بالطَّعام والشَّراب؛ وكذلك القلوب تُحِسُّ بما يتنزَّل إليها مِنَ العلوم الَّتِي هي طعامها وشرابها»[(٢)].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

* «شبَّه ﷺ العلم والهدى الَّذِي جاء به بالغيث؛ لما يحصل بكُلٍّ واحد منهما: مِنَ الحياة، والمنافع، والأغذية، والأدوية، وسائر مصالح العباد؛ فإنَّها بالعلم والمطر.

* وشبَّه القلوبَ بالأراضي الَّتِي يقع عليها المطر؛ لأنَّها المَحَلُّ الَّذِي يمسك الماء، فينبت سائر أنواع النَّبات النَّافع، كما أنَّ القلوب تعي العلم، فيثمر فيها ويزكو، وتظهر بركته وثمرته.

ثمَّ قسَّم النَّاس إلى ثلاثة أقسام -بحسب قبولهم واستعدادهم: لحفظه، وفهم معانيه، واستنباط أحكامه، واستخراج حكمه وفوائده-:

* **أحدها:** أهلُ الحفظ والفهم، الَّذِين حفظوه وعقلوه، وفهموا معانيه،

---

(١) جامع المسائل لابن تيميَّة (١/ ١٢٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٤١).

واستنبطوا وجوه الأحكام، والحكم، والفوائد منه. فهؤلاء بمنزلة الأرض الَّتِي قبلت الماء، وهذا بمنزلة الحفظ. فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط؛ فإنَّه بمنزلة إنبات الكلأ والعشب بالماء. فهذا مثل الحُفَّاظ الفقهاء، أهل الرِّواية والدِّراية.

* **القسم الثَّاني:** أهل الحفظ الَّذِين رُزِقُوا حِفْظَه ونقلَه وضبطَه، ولم يُرْزَقوا تَفَقُّهًا في معانيه، ولا استنباطًا ولا استخراجًا لوجوه الحكم والفوائد منه، فهم بمنزلة مَن يقرأ القرآن، ويحفظه، ويراعي حروفه وإعرابه، ولم يُرْزَق فيه فهمًا خاصًّا عن الله، كما قال عليُّ ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إلَّا فهمًا يؤتيه الله عبدًا في كتابه**»(١)، والنَّاس متفاوتون في الفهم عَنِ الله ورسوله أعظم تفاوت، فرُبَّ شخص يفهم مِنَ النَّصِّ حُكْمًا أو حكمين، ويفهم منه الآخر مائة أو مائتين، فهؤلاء بمنزلة الأرض الَّتِي أمسكت الماء للنَّاس، فانتفعوا به؛ هذا يشرب منه، وهذا يسقى، وهذا يزرع.

فهؤلاء القسمان هم السُّعداء، والأوَّلون أرفع درجة وأعلى قدرًا، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

* **القسم الثَّالث:** الَّذِين لا نصيب لهم منه، لا حفظًا ولا فهمًا ولا روايةً ولا دراية، بل هم بمنزلة الأرض الَّتِي هي قيعان، لا تنبت، ولا تُمْسِك الماء.

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٠٤٧).

وهؤلاء هم الأشقياء.

والقسمان الأوَّلان اشتركا في العلم والتَّعليم، كُلٌّ بحسب ما قَبِلَه، ووصل إليه؛ فهذا يعلم ألفاظ القرآن ويحفظها، وهذا يعلم معانيه وأحكامه وعلومه.

والقسم الثَّالث لا علم ولا تعليم، فهم الَّذِين لم يرفعوا بهدى الله رأسًا، ولم يقبلوه، وهؤلاء شَرٌّ مِنَ الأنعام، وهم وقود النَّار.

فقد اشتمل هذا الحديث الشَّريف العظيم على:

- التَّنبيه على شرف العلم والتَّعليم، وعظم موقعه، وشقاء مَن ليس من أهله.

- وذكر أقسام بني آدم بالنِّسبة فيه إلى: شقيِّهم، وسعيدهم.

- وتقسيم سعيدهم إلى: سابق مُقَرَّب، وصاحب يمين مقتصد.

- وفيه دلالة على أنَّ حاجة العباد إلى العلم، كحاجتهم إلى المطر، بل أعظم، وأنَّهم إذا فقدوا العلم؛ فهم بمنزلة الأرض الَّتِي فقدت الغيث. قال الإمام أحمد[1]: «النَّاس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطَّعام والشَّراب؛ لأنَّ الطَّعام والشَّراب يُحْتَاج إليه في اليوم مرَّة أو مرَّتين، والعلم

(١) انظر: مسائل حرب (٣٤٣).

يحتاج إليه بعدد الأنفاس»[١].

«والرَّبُّ تعالى له الكمال، الَّذِي لا يقدر العباد قدره في أنواع؛ علمه، وحكمته، ومحبَّته، وفرحه، وبهجته، وغير ذلك ممَّا أخبرت به النُّصوص النَّبويَّة، ودلَّت عليه الدَّلائل الإلهيَّة... وهو في كُلِّ ذلك غنيٌّ عن كُلِّ ما سواه، فهو الَّذِي يجعل في قلوب العباد من: أنواع الأغذية، والأقوات، والمسارِّ، والفرح، والبهجة. مالا يجعله غيره، وهو إذا فرح بتوبة التَّائب فهو الَّذِي جعله تائبًا، حتَّى فرح بتوبته، لم يحتج في ذلك إلى أحد سواه.

والتَّعبير بلفظ: القوت، والطَّعام، والشَّراب، ونحو ذلك. عمَّا يُقِيت القلوب ويُغَذِّيها كثير جدًّا... وكثيرًا ما توصف القلوب بالعطش والجوع، وتوصف بالرِّيِّ والشِّبع. وفي الصَّحيحين أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**رَأَيْتُ كَأَنِّي أُتِيتُ بِقَدَحٍ، فَشَرِبْتُ، حَتَّى إِنِّي لَأَرَى الرِّيَّ يَخْرُجُ مِنْ أَظْفَارِي، ثُمَّ نَاوَلْتُ فَضْلِي عُمَرَ**»، قالوا: فما أوَّلته يا رسول الله؟ قال: «العلم»[٢]. فجعل العلم بمنزلة الشَّراب الَّذِي يشرب»[٣].

ولهذا شُبِّهت حياة القلوب بعد موتها بحياة الأرض بعد موتها، وذلك

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ١٦٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٧٠٠٦)، ومسلم (٢٣٩١).

(٣) جامع المسائل لابن تيميَّة (ص١٢٥).

بما ينزله عليها مِنَ الماء، فيسقيها وتحيا به، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٦-١٧].

«أي: ألم يجئ الوقت الَّذِي تلين به قلوبهم، وتخشع لذكر الله -الَّذِي هو القرآن- وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل مِنَ الحَقِّ الَّذِي جاء به محمَّد ﷺ؟! وهذا فيه الحثُّ على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله مِنَ الكتاب والحكمة، وأن يتذكَّر المؤمنون المواعظ الإلهيَّة والأحكام الشَّرعيَّة كُلَّ وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك، ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾، أي: ولا يكونوا كالَّذِين أنزل الله عليهم الكتاب، الموجب لخشوع القلب والانقياد التَّام، ثمَّ لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزَّمان واستمرَّت بهم الغفلة؛ فاضمحلَّ إيمانهم، وزال إيقانهم، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، فالقلوب تحتاج في كُلِّ وقت إلى أن تُذَكَّر بما أنزله الله، وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك؛ فإنَّ ذلك سبب لقسوة القلب، وجمود العين.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٧]. فإنَّ الآيات تدلُّ العقول على العلم بالمطالب الإلهيَّة، والَّذِي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم، فيجازيهم

بأعمالهم، والَّذِي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر؛ قادر على أن يحيي القلوب الميِّتة، بما أنزله مِنَ الحقِّ على رسوله. وهذه الآية تدلُّ على أنَّه لا عقل لمَن لم يهتد بآيات الله، ولم يَنْقَد لشرائع الله»(١).

وشبَّه الله ما أنزله على القلوب بالماء الَّذِي ينزله على الأرض، وجعل القلوب كالأودية في حظِّها ونصيبها مِنَ القرآن، «والقرآن مورد يرده الخلق كلُّهم، وكُلٌّ ينال منه على مقدار ما قسم الله له، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرَّعد:١٧].

وهذا مثل ضربه الله سبحانه، لما أنزل مِنَ العلم والإيمان، والقلوب الَّتِي تنال ذلك؛ شبَّه الإيمانَ بالماء النَّازل، والقلوبَ بالأودية؛ فمنها كبار، ومنها صغار. وبيَّن أنَّ الماء كما يختلط بما يكون في الأرض، كذلك القلوب فيها شبهات وشهوات تخالط الإنسان، وأخبر: أنَّ ذلك الزَّبد يجفأ جفاء، وما ينفع النَّاس يمكث في الأرض، كذلك الشُّبهات تجفوها القلوب، وما ينفع يمكث فيها»(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن للسِّعدِيِّ (ص٨٤٠).

(٢) درء تعارض العقل والنَّقل (٧/ ٤٢٨).

الحاصل: أنَّ هذه القلوب أوعية؛ فخيرها أوعاها للخير والرَّشاد، وشرُّها أوعاها للبغي والفساد.

نقل ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه ذمِّ الهوى، عن أحمد بن خضرويه قال: «القلوب أوعية فإذا امتلأت مِنَ الحَقِّ؛ أظهرت زيادة أنوارها على الجوارح، وإذا امتلأت مِنَ الباطل؛ أظهرت زيادة ظُلَمِها على الجوارح»(١).

والعبد لا يزال بخير ما كان مجتهدًا؛ في إصلاح قلبه، وطهارته، وسلامته مِنَ الآفات، وعمارته بحُبِّ الله، وإجلاله، وتعظيمه سبحانه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولم يكن أكثر تطوُّع النَّبِيِّ ﷺ وخواصِّ أصحابه بكثرة الصَّوم والصَّلاة، بل بِبِرِّ القلوب وطهارتها وسلامتها، وقوَّة تعلُّقها بالله خشية له ومحبَّة وإجلالًا وتعظيمًا، ورغبةً فيما عنده، وزهدًا فيما يفنى.

وفي المسند عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إِنِّي أَعْلَمُكُمْ بِاللهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ قَلْبًا**»(٢).

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لأصحابه: «أنتم أكثر صلاة وصيامًا من أصحاب محمَّد ﷺ، وهم كانوا خيرًا منكم، قالوا: وَلِمَ؟ قال: كانوا أزهدَ منكم في

---

(١) ذمُّ الهوى لابن الجوزيِّ (ص٦٦).

(٢) رواه أحمد (٢٤٣١٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٣٥٠٢).

الدُّنيا، وأرغبَ في الآخرة».

وقال بكر المزنِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في صدره».

قال بعض العلماء المُتَقَدِّمين: «الَّذِي وقر في صدره هو حبُّ الله والنَّصيحة لخلقه».

وسُئِلت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز، بعد وفاته عن عمله؟ فقالت: والله، ما كان بأكثر النَّاس صلاةً ولا بأكثرهم صيامًا، ولكن والله، ما رأيت أحدًا أخوف لله من عمر، لقد كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدَّة الخوف، حتَّى نقول: ليصبحنَّ النَّاس ولا خليفة لهم.

قال بعض السَّلف: ما بلغ مَن بلغ عندنا بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بسخاوة النُّفوس وسلامة الصُّدور والنُّصح للأُمَّة... ونصَّ كثير مِنَ الأئمَّة على: أنَّ طلب العلم أفضل من صلاة النَّافلة، وكذلك الاشتغال بتطهير القلوب أفضل مِنَ الإستكثار مِنَ الصَّوم والصَّلاة، مع غشِّ القلوب ودغلها. ومثل مَن يستكثر مِنَ الصَّوم والصَّلاة مع دغل القلب وغشِّه، كمثل مَن بذر بذرًا في أرض دغلة كثيرة الشَّوك؛ فلا يزكو ما ينبت فيها مِنَ الزَّرع، بل يمحقه

دغل الأرض ويفسده، فإذا نظفت الأرض من دغلها زكى ما ينبت فيها»[(١)].

رزقنا الله أجمعين العلم النَّافع والعمل الصالح، وأصلح قلوبنا، وهدانا إليه صراطًا مستقيمًا.

(١) لطائف المعارف لابن رجب (ص٢٥٤ - ٢٥٥).